

محمد لطفي اليوسفي\*

## الثورة التونسية: الشعب يريد إسقاط النظام

مشّت الخيول على العصافير الصغيرة  
فابتكرنا الياسمين  
ليغيب وجه الموت عن كلماتنا  
محمود درويش

رأوا أذنان بن علي وزبانيته يحاولون  
الالتفاف على الثورة فصار: "الشعب يريد  
إسقاط الحكومة". وعلى عجل هاجر  
الشعار من تونس إلى ميدان التحرير في  
القاهرة ومعه حزمة من الشعارات التونسية  
الفرعية (DÉGAGE : GAME OVER):  
ارحل: تونس تونس حُرّة حُرّة بنّ علي علي  
برّة..). تخلّى المصريون عن لهجتهم وبدلاً  
من أن يقولوا "الشعب عايز" حافظوا على  
الأمانة وأجبروا مبارك على التنحي. ثم  
كان أن تلقفت بلاد عربية كثيرة الشعار  
ذاته ورفعته عالياً مدوّياً في اليمن  
والبحرين. أمّا في فلسطين فوقع تحويره  
قليلاً ورُفِعَ في وجه أو سلو واتفاقية  
الخيانة والاستسلام. وعلى عجل أيضاً عاد  
الشعار إلى المغرب العربي فهتف به  
المنتفضون في الجزائر.  
ولهجرة الشعار من تونس على هذا  
النحو أكثر من دلالة. إن تبنيّه من طرف  
العديد من الشعوب العربية يعني أن هذه  
الشعوب تترشح تحت نير الاستبداد ذاته. إن

ما من ثورة في تاريخ البشرية حققت  
نجاحها إلا بعد أن صاغت شعارها.  
عندما تصوغ ثورة ما شعارها تكون قد  
حددت رؤيتها ومطالبها وخلقت لها مثلاً  
أعلى مشتركاً يوحد الثائرين. الشعار  
المُوحّد بوصلة تحدد الخيارات والطموحات  
والوجهة. والناظر في خريطة الوطن العربي  
اليوم سرعان ما يدرك أن الثورة التونسية  
نجحت في صوغ شعار ثورات الشعوب  
العربية جميعها. لقد استند شباب تونس  
إلى شعر الشاعر الخالد أبي القاسم الشابي  
ولا سيما مطلع قصيدته "إرادة الحياة":  
إذا الشعب يوماً أراد الحياة  
فلا بد أن يستجيب القدر  
فأدخلوا على البيت بعضاً من تحوير  
فصار: "الشعب يريد إسقاط النظام". لأن  
بن علي بالفرار ليلاً، وانقضت حكومة  
موقّعة أغلب أفرادها من أتباعه على دفة  
الحكم، فغيّر الشباب الشعار من جديد حين  
(\*) كاتب وناقد تونسي.

الثورة كثر أيضاً ولهم أحابيلهم وحيلهم، وثمة وعي لدى التونسيين جميعاً بأن هؤلاء الأعداء أصناف ومنهم:

## ١ - حزب التجمع الدستوري الديمقراطي ذو الأرواح السبعة

إن بنية حزب التجمع الدستوري الديمقراطي (!) تكشف في حد ذاتها عن طابعه الفاشي الاستبدادي. فقد تأسس في سنة ١٩٢٠ حين لمع نجم الأحزاب الشيوعية وصعود الفاشية في إيطاليا والنازية في ألمانيا، ولم يكن لمؤسسي الحزب الدستوري التونسي وقتها أي دراية بتأسيس الأحزاب وكيفيات هيكلتها، لذلك التفتوا إلى تلك الأحزاب الاستبدادية واستلهموها أو استنسخوها. وهذه صورة موجزة عن هياكل الحزب وكيفيات استيلائه على الحياة، وهي هياكل تبدأ من المدارس الإعدادية لتشمل مؤسسات المجتمع كافة:

- منظمة الشبيبة المدرسية: تنشط في المدارس الإعدادية والثانوية، وتوكل إليها مهمة تأطير صغار السن واستدراجهم وإعدادهم للالتحاق بكوادر الحزب لاحقاً.
- لجان الأحياء: وهي عبارة عن ميليشيات مراقبة لا يخلو منها حي من أحياء المدن والقرى.
- الميليشيات: وهي ميليشيات قمعية تنشط عند الأزمات، وتكوّنت في السبعينيات عندما نصّب الرئيس بورقيبة نفسه رئيساً مدى الحياة، وبدأت الاحتجاجات الطلابية والعمالية ضد نظام حكمه.
- الشُّعْب الدستورية: وهي شُعب مزروعة في جميع الأحياء، ولكل حي شعبيته.
- الشُّعْب المهنية: وهي شُعب مزروعة في جميع المؤسسات الحكومية والخاصة: في الجامعات والبنوك والمستشفيات والوزارات والأسواق والمصانع والإدارات... إلخ.
- لجان التنسيق الجهوي: وهي لجان

هذه الشعوب على اختلافها كانت تنتظر الشرارة الأولى التي أطلقها محمد البوعزيزي معمداً بالنار واللهب، وهذا يعني أيضاً أن أجيالاً شابة جديدة نشأت في البلاد العربية متعطشة إلى الحرية والكرامة. المشهد ذاته تكرر. شباب يقودون شعوبهم في اتجاه المستقبل. لم تحقق الثورة في تونس جميع أهدافها بعد، لكنها تمضي قدماً على الدرب. ويمكن للتجربة التونسية أن تساهم في بلورة التحول الديمقراطي في البلاد العربية، ولا سيما إذا أحطنا بالصراع الذي يجري الآن بين الشعب وأعدائه، بين حماة الثورة والمتربصين بها. عديدون هم الكتاب والمفكرون الذين قارنوا بين الثورة الفرنسية في ١٤ تموز/يوليو ١٧٨٩، والثورة التونسية التي تُوّجت نهار ١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠١١ بهروب الدكتاتور. فمثلما انتشرت الثورة الفرنسية وشعاراتها على عجل إلى إيطاليا وألمانيا وإسبانيا وألهمت أوروبا كلها، انتشرت على عجل أيضاً روح الثورة التونسية وشعاراتها في العديد من البلاد العربية.

إن ما يجري في تونس منذ ١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠١١ ليس صراعاً مع بقايا الحكم الاستبدادي فحسب، بل هو إصرار على تلمس طريق مؤدية إلى الديمقراطية أيضاً، ويمكن لهذه الطريق أن تساهم في رفق التحول الديمقراطي في العالم العربي. فمثلما كانت ثورة تونس نموذجية ألهمت العديد من الشعوب العربية، ومثلما جاب شعارها "الشعب يريد إسقاط النظام" بلاداً عربية عديدة، يمكن لما يجري الآن في تونس أن يساهم في تبيان المخاطر المحدقة بالثورات العربية جميعها، فلأعداء هذه الثورات أوجه شبه لا تحصى. إن حماة الثورة في تونس كثر: الشباب، وجمعيات المجتمع المدني: نقابات وجمعيات نسائية تحديتية وأحزاب سياسية معارضة، وشعبٌ عقد العزم على الانتصار. لكن أعداء هذه

واحداً طعم الحرية.

إن الوعي بأن حزب التجمّع هو مهندس الولايات وراعي الاستبداد هو الذي جعل الشعب التونسي بأسره يطالب بتفكيك هذا التجمع، ويصرّ على حرمانه من المشاركة السياسية، غير أن عناصره انتشروا في البلد كافة يحاولون إشاعة الفوضى وزرع الشائعات المغرضة وتنظيم حملات تخريبية تهدف إلى تشويه الثورة والشعب القائم بها. والثابت أيضاً أن عناصره موجودون في الحكومة الموقّعة وعلى رأسهم الوزير الأول محمد الغنوشي (استقال تحت ضغط آلاف المتظاهرين والمعتصمين في أثناء كتابتي هذا النص. وللحكاية فصول أخرى، فالمشهد لم يكتمل بعد). لذلك ما إن عيّنت الحكومة محافظين جديداً للمحافظات التونسية حتى تبين أن ١٩ محافظاً بين ٢٤ ينتمون إلى التجمّع الدستوري الديمقراطي (!) فقام الشعب بمحاصرة مقرات المحافظين وأرغم هؤلاء المندسين الجدد على الفرار. والراجح أن حزباً يبلغ من العمر ٩١ عاماً بالتمام والكمال لن يلقي حتفه بسرعة، ولذلك شبهه التونسيون بالكلب،\*\* في استلهاهم واضح لما يزره به المتخيل التونسي من أساطير وأمثال تلخ جميعها على أن للكلب سبعة أرواح.

## ٢ - الحكومة الالتفافية

سمّت نفسها انتقالية، وهي لا تنوي الرحيل أصلاً. إنها مكونة من أعضاء من التجمّع وثلاثة وزراء من الأحزاب المعارضة التي رعاها زين بن علي إيهاماً بالتعددية الحزبية والديمقراطية. أمّا رئيسها الحالي فكان رئيساً لمجلس النواب منذ عهد بورقيبة حتى هروب بن علي ليلاً إلى السعودية، ووزيرها الأول المستقيل هو وزير بن علي طوال أكثر من عشرة أعوام، ووزيرها الجديد الباجي قائد السبسي تقلّب في وزارات عديدة في حكم بورقيبة

موزعة في جميع المحافظات بمعدل لجنة تنسيق في كل محافظة، وه لجان في تونس العاصمة، وتتولى التنسيق بين لجان الأحياء والشعب الدستورية.

● **لجان تنسيق في المهاجر:** وهي لجان تتولى تأطير التونسيين في الخارج ومراقبة من لا ينتمون إلى الحزب.

● **الجامعات الدستورية\*:** وترأس كل جامعة ٨١٠٠ شعبة دستورية.

● **اللجنة المركزية للحزب:** وهي لجنة تنبثق من مؤتمرات الحزب، وتجري تزكية أعضائها من داخل الحزب ذاته وتتكون من ٣٥٠ فرداً.

● **الديوان السياسي:** وهو الهيئة العليا التي تشرف على الحزب ويعينها رئيس الحزب، وهو رئيس الدولة نفسه.

لقد غيّر الحزب الحاكم في تونس اسمه أكثر من مرة ليوهم بأنه يجدد نفسه ويغيّر ممارساته، فتسمّى في البداية "الحزب الحر الدستوري" (١٩٢٠)، ثم بدّل الاسم فصار "الحزب الدستوري الجديد" (١٩٣٤)، ثم اختار اسم "الحزب الاشتراكي الدستوري" (١٩٦٤)، ثم اختار اسم "التجمع الدستوري الديمقراطي" (١٩٨٧). غير أن ممارساته الاستبدادية كانت تزداد عنفاً وفظاعة طوال خمسين عاماً. ومنذ عهد الرئيس مدى الحياة الحبيب بورقيبة كان الحزب يختار الوزراء والمحافظين والمعتمدين ورؤساء البلديات والسفراء ومديري المؤسسات التعليمية والاجتماعية ودور الشباب وغيرها من المؤسسات المدنية، والقبضة من حديد لا تكل ولا تُقل، وأجيال متعاقبة لم تعرف يوماً

(\*) الجامعة الدستورية ليست جامعة بالمعنى الأكاديمي، وإنما هي عبارة عن خلية من خلايا الحزب تتبع لجنة التنسيق الجهوي، وتشرف على الشعب البالغ عددها في تونس ٨١٤٠ شعبة، وخارج تونس ٥٠٩ شعب. (\*\*\*) في المخيلة الشعبية في الشرق فإن القطعة هي التي بسبعة أرواح.

المطلق للرئيس مدى الحياة. ثم كان أن جاء بن علي فواصل مسيرة الرئيس السابق بعناد وإصرار أكثر مكرراً إذ أمر بتأسيس مجلس المستشارين وعيّن على رأسه وزير داخلية السابق والملاحق دولياً بسبب تورطه في قضايا تعذيب حتى الموت أشرف عليها بنفسه. أما أعضاؤه فأخلط وأشتات: وزراء سابقون؛ تجمعيون هرمون؛ محافظون مسنونون؛ أشباه مثقفين يدينون بالولاء المطلق لبن علي وعائلته.

### ٣ - الإعلام التونسي ومؤامراته سراً وعلانية

للإعلام في تونس حكاية طويلة، وللحكاية التواءاتها وتاريخها. كانت تونس من الأقطار التي شهدت عمليات تحديث كبرى منذ نهاية القرن التاسع عشر. ففي مطلع القرن العشرين تأسست النقابات والصحافة والإذاعة والمجلات والأحزاب، وحين استقل البلد عمد بورقيبة إلى إلغاء الصحف والمجلات، ولم يسمح إلا بظهور أربع صحف اثنتان منهما مهادتتان واثنتان تابعتان للحزب الحاكم هما جريدة "العمل" وقريبتها التي تحمل الاسم نفسه بالفرنسية وهو *L'action*. وسيقوم زين العابدين بن علي عند استيلائه على الحكم بتبديل اسم هاتين الجريدتين لتصبحا "الحرية" و *Le Renouveau* أي التجديد. ولتونس مع تبديل أسماء الحزب الحاكم وجرائده ومؤسساته حكاية مدوّخة. تبارى الإعلاميون التونسيون في عهد بورقيبة وطوال عهد بن علي في حملات الدعاية للنظام وخدمته وتلميع صورته إلى حد العبادة: تباروا في توشية جرائدهم باللون البنفسجي المحبّب لبن علي، وقناة تونس ٧ المتلفزة شاهدة على ذلك، فقد كان شعارها ملوناً باللون المحبّب إلى الدكتاتور زين العابدين المخلوع، كما أن شوارع تونس غصّت برايات وأعلام بنفسجية تبارت الشعب الدستورية في

الرئيس مدى الحياة. وللحكاية فصول أخرى، فالمشهد لم يكتمل بعد. إن وعي التونسيين بأن الحكومة الانتقالية حكومة خيانة وطنية جعلهم يطلقون عليها اسم الحكومة الالتفافية. وهذا الوعي ذاته هو الذي دفع الشباب التونسي إلى التحرك من جميع المحافظات للاعتصام أمام مقرها في القصبه ليلاً نهاراً طوال أيام فانقضت عليهم قوات الأمن وفرقتهم بشراسة منقطعة النظير، فازداد يقين كل تونسي بأن الدكتاتور لم يرحل. ولذلك جاء الاعتصام الثاني أكثر عدداً وأشدّ تصميمياً: خيام وتظاهرات واحتجاجات يشارك فيها يومياً آلاف قدموا من جميع المحافظات وألوا على أنفسهم ألا يرحلوا إلا بعد إسقاط الحكومة الالتفافية.

لم يكتمل المشهد بعد. إنه صراع الإرادات بين حكومة لا شرعية لها وآلاف من المحتجين. حكومة تستمد قوتها من السفارات الأجنبية، ومن يقينها بأن التظاهرات السلمية لن تعرّض أفرادها للخطر؛ حكومة قابضة داخل القصر لا تمتلك أي مشروع للخروج بالبلد إلى دنيا الديمقراطية، وفي مواجهتها آلاف من المحتجين الصامدين الذين بلوروا مشروعاً متكاملًا لخصوه في نقاط واضحة بيّنة لا لبس فيها:

- إسقاط الحكومة الالتفافية.

- تكوين مجلس تأسيسي يشرف على

المرحلة الانتقالية.

- تفكيك حزب التجمع وحله نهائياً.

- حل مجلس المستشارين.

- تفكيك البرلمان المنصّب منذ ٥٠ عاماً.

وللبرلمان في تونس حكاية وتاريخ. لقد

طالب به التونسيون أيام الاستعمار الفرنسي وخرجوا في تظاهرات استشهد فيها العديد من الناس، لكن ما إن تأسست دولة الاستقلال حتى حرص بورقيبة على ألا يدخل هذا البرلمان إلا من ينتمي إلى الحزب الحاكم ويدين بالولاء

للميدان. "لقد غيّر الإعلاميون المنتمون إلى التجمّع من لباسهم ولبوسهم، لكنهم عجزوا عن تغيير خطابهم ونواياهم المبيّنة. والمشهد لم يكتمل بعد.

#### ٤ - مكائد دول الجوار الشقيقة وأحابيل الدول الأجنبية الصديقة (!)

للعلاقة بين الشعب الليبي والشعب التونسي تاريخ طويل، ولعل من أنصع صفحات ذلك التاريخ أن التونسيين تطوّعوا بأعداد غفيرة مناصرة لإخوانهم في ليبيا لحظة اجتاحتها قوات موسوليني. وها إن الشعب الليبي الثائر يحفظ الأمانة ويردّ الجميل بثورته على العقيد المناصر لبن علي وعائلاته. فمعلوم أن كثيرين من أفراد الحرس الجمهوري التونسي الذي روّع الناس في تونس هربوا إلى ليبيا، ومعلوم أيضاً أن "الأخ القائد" استبشر بقدمهم وخطّط لمعاوية الثورة والثوار في تونس. لم يكن العقيد يدري أن شعبه الطيب العظيم حافظ للأمانة وحارس للثورة التونسية. إن ثورة ليبيا رافعة حقيقية للثورة في تونس. في ثمانينيات القرن الماضي نجح العقيد والحكومة الجزائرية في تسليح مجموعات من الشباب التونسي فكانت أحداث مدينة قفصة الدامية. كانت مؤامرة مزدوجة. أمّا اليوم فليبيا الحرة لن تكون خزّاناً للمؤامرات تحاك من شرق تونس وغربها.

"أميركا هي الطاعون والطاعون أميركا"، هكذا حدّثنا محمود درويش أيام اجتاحت ابنة صهيون الضالة بيروت. ومحمود درويش لم يعد بيننا ليحدثنا عن فرنسا وعن إيطاليا وعن إسبانيا. ولهذه الدول كلها في تونس مآرب ومكائد ومؤامرات. وكانت تبشير المؤامرة وصول سفير فرنسا القادم من العراق إلى تونس بدلاً من سفيرها القديم الذي عوقب لأنه لم يتنبأ بالثورة التونسية قبل حدوثها لتمكين فرنسا من إعانة الرئيس الفارّ على إخمادها في المهدي، وهو ينطق اللغة العربية بلكنة شرقية لكنه يتكلم

تزيين البلد وساحاته بها حتى طغت، أو كادت، على العلم التونسي. وسينجح القائمون على الإعلام في تونس من أبناء التجمّع الدستوري والموالين له المتبارين في خدمة النظام، في قلب الحقائق، والتعظيم على ما يجري في البلد من مظالم.

#### فجأة: معمداً بالنار والنور رحل

البوعزيزي فافتضح الإعلام التونسي. على عجل، عند هروب الرئيس المخلوع غيّرت قناة تونس ٧ اسمها (ورقم ٧ يشير كما هو معلوم إلى ٧ تشرين الثاني/نوفمبر، تاريخ استيلاء الرئيس المخلوع على السلطة) واختارت لنفسها اسم القناة الوطنية، ومحت اللون البنفسجي المحبّب إلى الرئيس المخلوع. وإنه لأمر مخز، إنه لأمر مذهل محير أن القنوات الفضائية التونسية، وهي أربع قنوات، حرصت على تقليد رئيسها المخلوع. لقد بالغ هو، قبل الهروب، في استخدام القوة المفرطة والرصاص والقتل، بينما بالغت هي في "الذكاء" المفرط إلى حد البلاهة. و"ذكاؤها" هذا لا يتجلّى في كونها لا تغطي ما يجري في تونس، وإنما في تكريسها أربع خطط عدائية للثورة: الأولى، تكتيف بثّ أفلام الكرتون، وبثّ المسلسلات المصرية والتركية الهابطة، وقد وصل الأمر إلى حد المهزلة السوداء؛ الثانية، إجراء حوارات مع بعض العائلات الفقيرة المدقعة في أرياف البلد وأقاصيه لإيهام الجميع بأن الحكومة الالتفافية الموقّعة ستقلب بؤس الناس نعيماً تجري من تحته أنهار الأرض قاطبة؛ الثالثة، التعظيم على ما يجري في البلد من احتجاجات وتظاهرات ضد حكومة الالتفاف؛ الرابعة، الحرص على تأجيج المطالب الفئوية الجزئية لإلهاء الناس عن الثورة ومطالبها الكبرى. إن آلافاً من التونسيين يتظاهرون يومياً أمام مبنى التلفزيون ومقرات الصحف مطالبين الإعلاميين بالكف عن التأمّر، والشعار هو الشعار: "يا صحافي يا جبان انزل انزل"

وعى بأن الثورة بدأت الآن وأعداؤها كثر. ولسان حال التونسي يقول في هذه الأيام: كيف أقسم جسمي في جسوم كثيرة، فالمهمات عديدة: إسقاط حكومة الالتفاف؛ حراسة الثورة؛ مواجهة الإعلاميين التونسيين؛ مناصرة الثورات العربية، ولا سيما ثورة أحرار ليبيا، فقد تكونت لجان متعددة تعمل على تسيير قوافل إغاثة للشعب الليبي الذي قرّر نيرون الجديد أن يحرقه؛ مناصرة فلسطين. الجسم واحد، والمهمات كثيرة. هكذا يحدث التونسي نفسه همساً: المهمات كثيرة والجسم واحد، وعليّ أن أقسم جسمي في جسوم كثيرة. ■

العربية. شاب في الخامسة والعشرين، رُوّجت لمقدمه الفضائيات ولمعت صورته متكئاً على أنه أحد مهندسي تفكيك العراق. وسرعان ما اكتشف التونسيون غطرسة السفير الفرنسي الشاب ونواياه المروعة، فاحتشد الآلاف أمام السفارة الفرنسية يطالبون برحيله.

## خاتمة

ما يهمس به التونسي للتونسي ولشقيقه العربي: "أقسم نفسي في جسوم كثيرة"

المشهد لم يكتمل بعد. وجميع التونسيين على

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

## مقالات تاريخية تكريماً للأستاذ الدكتور بطرس أبو منة

إعداد وتحرير

عطا الله قبطي؛ جوني منصور؛ مصطفى عباسي